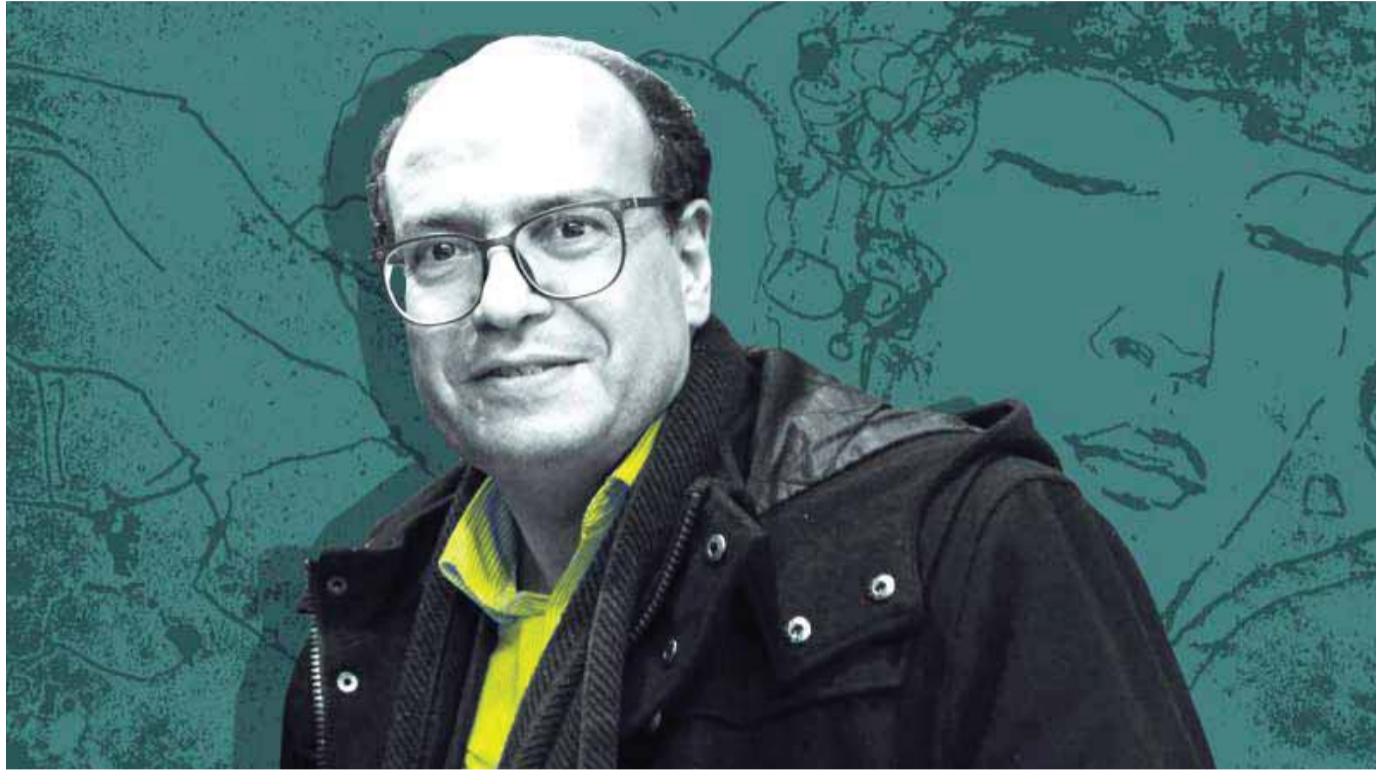


حسن نجمي: الشعر المتوسطي ليس ما هو مكتوب فحسب

القصيدة المتوسطية.. أجمل المشاهد الشعرية وأغناها في العالم المعاصر



يعتبر الشاعر المغربي حسن نجمي، من الأسماء الأكثر حضوراً في الفضاء الشعري المعاصر، سواء على مستوى التراكم الشعري أو على مستوى التميز والتنوع والجدة؛ فقد اختلط لنفسه مساراً شعرياً حاول فيه بناء قصيدة تخرج من رحم الجغرافيا المحلية إلى أفق كوني أرحب. وحقق لصوته الشعري مكانة لافتة في الفضاء الشعري العربي الأوسع. هنا حوار مع الشاعر تمحور حول رؤيته لفكرة الانتماء المتوسطي للشاعر وثقافته وحضارته المجتمعية، في كشف عن ارتباط الثقافة العربية بثقافات المتوسط، وفي حديث حول قضايا البحث النقدي والكتابة الأدبية.

منير سرحاني
كاتب مغربي

في أعماله الشعرية "حياة صغيرة"، "المستحتمات"، "على انفراد"، "أذى كالحب"، حاول الشاعر حسن نجمي عبر بحثه الشعري من تحقيق ما نسماه بالشعرية البصرية في مغامرة عملت على اجتياز مجالها المحسد بالرؤية إلى مجال الترميز ولغة الانزياح التي تحقق الشعري من خلال انفتاح الرؤيا على مديات تعيد تشكيل البصري ليضحي لغة قائمة في ذاتها.

لعل أعماله القصيدة مثل "فكرة الظهر"، "ضريح أخماتوفا" و"يتشهاك اللسان" تعد بجديد شعري ينقل القصيدة إلى فضاء يذهب بالتفري إلى أقصى حدوده. بالإضافة إلى هذا فإن نجمي كاتب روائي صدرت له "جيتروتو" التي ترجمت إلى الإنجليزية والأمازيغية. وله حضور فاعل في الساحة الثقافية "الأدبية" إذ هو أحد رواد البحث في الثقافة الشعبية الشفوية وقدم على هذا الصعيد بحثاً في فن العبضة المغربي جمع فيه بين العمل على النص الشعري الشفوي وامتداداته الفنية المرتبطة بالتاريخ والأثرولوجيا والمقاربة الأنثرومينيكولوجية.

باختصار، القصيدة المتوسطية قصيدة كونية مفتوحة ولا نهائية، أكبر وأوسع وأعمق من المتوسط نفسه.

■ **الجديد:** على ضوء هذه الحدود التي أشرتُ إليها، وهذه الخرائط المتعددة للمتوسط، كيف يمكننا أن نتحدث عن موطنة متوسطية؟ وهل هناك مواطن متوسطي؟

● **حسن نجمي:** بالتأكيد هناك مواطن متوسطي لأن هناك تجربة زمن أولاً مثلما هناك جغرافيا متوسطية عبر البحر والامتدادات المختلفة في اليابسة. هناك تاريخ وذاكرة، هناك حين متوسطي وزيوت وطبخ والبسة وأنسجة وموسيقىات ورقصات وأناشيد وغناء وفلكلور وتهايل وتراتيل ورياضات وتعبيرات جسدية وعمران ومسرح وسينما ومعمار وفنون تشكيلية، إلخ. وبالتالي لا يمكن إلا أن يكون هناك مواطن بنواة صلبة لهوية متوسطية، وبنائية متوسطية مشتركة مع اختلافات في التفاصيل بالطبع.

والمواطن المغربي، واستطرادا المواطن المغربي، لا يمكنه إلا أن يكون - بالقوة وبالفعل - مواطناً متوسطياً، وإنك بالرغم من النواة المحلية أو القطرية شديدة الوطأة في نسيج هويته، ولكن لا تعارض، بل على العكس هناك تكامل وترسب على مستوى طبقات الهوية في تكوينه العقلي والنفسي والعاطفي، وفي تخيله، وسواء في واقعه المادي أو في حلمه بل حتى في وهمه. وأنت ترى كيف أن البعض من شبابنا الحال بالعيش في الرغد الأوروبي يعرف أن العبور ليس سهلاً ولا ممكناً دائماً، ويعرف أن البحر الأبيض المتوسط ليس أبيض دائماً، أي يدرك أن الموت هناك، ومع ذلك يلقي بنفسه في المغامرة وكأنه يريد أن يجرب الموت بعد أن جرب الحياة؛

أنت ترى إذن، حتى في الموت وليس في الحياة فحسب، ينهي المغربي الحال أو الواهم أو اللابس حباته في مياه متوسطية، بل ترى جميعاً كيف أصبح الحوض المتوسطي مورقاً بالجنث، ما يعطيني إحساساً بانسي قد أمد يدي إلى الماء فالنس جثماناً عائماً. مشاهد مؤلم جارح حقاً، لكنه أصبح "معتاداً" - للأسف - في الصور والشرائح الإخبارية المتكررة في القنوات التلفزيونية. اليوم، في الغرب العميق، في الأقاليم الداخلية البعيدة عن البحر، وعن المتوسط، والتي تفقدت أساساً إلى ثقافة البحر وتقاليده، وفي عائلات قروية فقيرة تجتاحها الأمية، يمكننا أن نلمس كيف أصبح

المواطن المتوسطي، والذي لا يجيد الكتابة والقراءة، يعرف بعضاً من التفاصيل الجغرافية الخاصة بالمتوسط. واضح أن تراجيديا الهجرة المغربية والمغربية (والأفريقية جنوب الصحراء اليوم كذلك) أصبحت تعلم بسطاء الناس معنى المواطنة المتوسطية، معني أن يعيش "الساموراي" المتوسطي اليائس وأن يموت أيضاً بطقوس مأساوية محزنة ومقلقة يمكن أن أضفها بـ"الهراكيري" المتوسطي. الساموراي الياباني كان يضطر إلى قتل نفسه عن طريق قطع الأضواء لكي لا بأسره العدو أو لكي لا يجلب لنفسه ولأهله ولبلده الخزي والعار إضر الهزيمة. ما الفرق إذن، أمام ضغوط الواقع والحلم بحياة الرفاه في أوروبا واستحالة العيش الكريم هنا وهناك؟ ثم ما العمل؟ ففي المتوسط، حتى الآلهة تموت؛ وهي لا تموت، كما قال رونو شار في إحدى قصائده، إلا لأنها بينما. أقصد هنا في المتوسط، في الماء وعلى الأرض وبين الناس.

الإرث الشفوي

■ **الجديد:** باعتبارك الباحث الذي اشتغل على الثقافة الشفوية من خلال فن العبضة بالمغرب، هل يمكننا أن نتحدث عن ثقافة شفوية متوسطية قائمة بذاتها، لها محدداتها وخصائصها وامتداداتها؟

● **حسن نجمي:** أجل، لقد بدأت الثقافة المتوسطية أول ما بدأت شفويًا، وكل الثقافات الإنسانية، ولا يزال البعد الشفوي حاضراً فيها إلى اليوم رغم انتشار الكتابة والصورة والثقافة الرقمية والافتراضية. ولعلك تعرف أن أهم مشكلة فكرية فلسفية وتاريخية في الفكر الغربي، المتوسطي الأوروبي والكوني، هي "المشكلة الهومييرية" ذات الصلة بالنص الأدبي الأسطوري مجهول المؤلف والمنسوبة إلى هوميروس الذي لم نتأكد حتى اليوم ما إذا كان موجوداً أم غير موجود فعلياً كتشخص فيزيقي وكأسم وكمؤلف أو أنه مجرد أسم تخفى خلفه مؤلفون متعددون.

بغض النظر عما نعرفه عن تاريخ الشعر الإنساني، نشيد الإنسانية الأول، لكونه بدأ شفويًا كتربيل وإنشاد، فإن النصوص الكبرى في الحضارة المتوسطية بل وفي الحضارة الإنسانية كلها ظهرت عندما ظهرت لأول مرة نصوصاً شفوية، فالملامح والنصوص

الدينية والكتب السماوية والمُحْكَبَات والأناشيد والأغاني هي بالأساس أعمال شفوية، وتم تدوينها لاحقاً في عصور الكتابة أو عصور التدوين.

لخورخي لويس بورخيس، في هذا السياق، محاضرتان هامتان إحداهما عن تاريخ الكتاب، والأخرى عن كتاب "الف ليلة وليلة". في المحاضرة الأولى، يتوقف عند خلود سقراط الذي لم يترك بعد موته أي شيء مكتوب، فقد كان معلماً شفويًا. كما يشير إلى البعد الشفوي الذي تعاليم المسيح الذي لم يكتب سوى مرة واحدة على الرمال بعض الجمل تكفلت الريح بحوها. ويشير أيضاً إلى فيثاغورس الذي رفض إرادياً الكتابة، وإلى معنى المحاورّة لدى أفلاطون الذي خلق له اندادا ووزع نفسه في بكتب سبوي مرة واحدة على الرمال وبعض الجمل تكفلت الريح بحوها. ويشير أيضاً إلى فيثاغورس الذي رفض إرادياً الكتابة، وإلى معنى المحاورّة لدى أفلاطون الذي خلق له اندادا ووزع نفسه عليهم كي يفكر ويتكلم. وكذلك الكتب السماوية، الكتاب المقدس، التوراة هي إساءة من الروح القدس، القرآن الكريم كان شفويًا قبل تدوينه بعناية الخليفة عثمان بن عفان.

ولا احتج إلى أن أتوقف عند المحاضرة الأخرى، فكتاب ألف ليلة وليلة هو أحد أبرز الأعمال الشفوية في التاريخ الإنساني، حكايات شفوية جمعت لاحقاً في كتاب بعد أن كانت متداولة على ألسنة الرواة الحكواتيين وسُجّر اللبالي في المساحات العربية. وأنت تعرف أن أفضل مخطوطة لهذا الكتاب هي المخطوطة المصرية التي اعتبرت أقرب إلى الاكتمال من باقي المخطوطات الأخرى لكتاب "اللبالي العربية". ومعناه أن أفضل نسخة لألف ليلة وليلة هي النسخة المتوسطة. وهذا ما لا ينبغي أن ينسأه القراء والشعور بهذا الكتاب المقروء في كافة جهات الأرض. ولا أنسى طبعاً النسخة الشامية، وهي أساسية أيضاً في دراسة تاريخ تشكّل كتاب ألف ليلة وليلة وتّبعه.

من جانب آخر، يكفي أن نقوم بعملية جرد بسيطة للتراث المتوسطي المتعدد، وعبر تبايناته، وللتعدد اللغوي وبالخصوص حجم اللهجات المتستعملة في البلدان المتوسطية وما تتداوله في لهجة من مدخرات ثقافية شفوية، وكذلك ما تزخر به الحياة اليومية من طقوس ومهن تقليدية وتعبيرات شفوية. كما أن التعدد الواضح في الخصوصيات الثقافية والاجتماعية والإعراق والإثنيات والممارسات العائلية والخصوص بالخصوص الديانات التوحيدية، واليهودية والمسيحية والإسلام، وما إلى ذلك يعبر عن ثقافات شفوية لها تمايزاتها مثلما لها مشترك جذري هو ما نسّميه بالبعد المتوسطي الجامع حتى وإن لم يكن سهلاً دائماً إدراك هذا المشترك والإحساس بأهميته الحضارية والإنسانية ودوره في تجسير العلاقات، وفي الحوار والتبادل والتخاطب والتقارب والتعاون.

من المؤكد أن البحر والشمس والرمال، الماء والباسة والضوء والإحساس بنعومة الفضاء لمّا يُعشّج الجسد الشعري. ولأن الشّعْر كتابة معرفية - هو أيضاً - فإنه يتغذى على مختلف العناصر والمكونات الطبيعية والثقافية والحضارية. ويمكنني أن أزعم أن

تتفق الشفوي على المكتوب

داخل هذا الفضاء الجيوثقافي الخاص، أم أن هذا الحكم نتاج لكليشيهات لا وجود لها على أرض الواقع؟

● **حسن نجمي:** ليس من الضروري أن يتفق البعد الشفوي على البعد المكتوب في الفضاء الجيوثقافي المتوسطي، ولا أن يتغلب المكتوب على الشفوي. المهم هو أن نعي باستمرار بأن الثقافة المتوسطية ليست هي ما هو مكتوب ومُذوّن فقط بل هي أيضاً هذا الاحتياطي الثقافي الشفوي الذي يشكل أنوية صلبة للهويات، ويمكنه أن يجعل من هذه الهويات هويات ناعمة وسلسة ومنفتحة مثلما يمكنه أن يُحوّلها إلى "هويات قاتلة" (Identités meurtrières) ومن ثم أهمية الجهود الفكرية والنظرية التي جعلت من التعبيرات والممارسات الثقافية الشفوية رأس مال رمزياً لا مادياً، ومادياً أحياناً.

هناك أدب متوسطي، ولكنه على قدر كبير من التنوع في اللغات واللهجات، وفي الأساليب وعلى مستوى المتخيل

إن الاستخفاف بالبُعد الشفوي على نحو ما نجده لدى بعض كبار المنقّنين والمُفكرين، خصوصاً العرب منهم، قد شكّل دائماً نوعاً من التلغيم كاتم الصوت للساحة الثقافية المتوسطية، محلياً وقُطرياً وعلى مستوى المتوسط ككل. إن أي توجه أو قرار بالإقصاء أو التهميش أو المحو للعناصر والتعبيرات الشفوية، اللغوية والثقافية، هو لعب بالنار من شأنه أن يهدد الاستقرار والأمن والوحدة المجتمعية.

■ **الجديد:** دعنا ننقل إلى سؤال آخر حول الوضع الشعري في هذه المنطقة المتوسطية. هل يمكننا أن نتحدث عن قصيدة متوسطية؟ وهل لها من خصوصيات تميزها داخل خرائط الشعر العالمي؟

● **حسن نجمي:** هناك قصيدة إنسانية، قصيدة كونية في جهة المتوسط، وبالتأكيد فهي قصيدة تحمل سمات الجغرافيا المتوسطية، ويلقي كل من التاريخ والذاكرة والمجتمع بظلاله عليها. في الأنثولوجيا الشعرية "شعراء المتوسط" (Les poètes de la Méditerranée) التي أعدتها الصديقة لجلال أريزا (باشراف دار النشر غاليمار بياريس)، يفتتح الشاعر الفرنسي الكبير إيف بونفوا كلمته التقديمية للكتاب بفكرة أن البحار تُشعّر وتُغري النفس، وذلك بما يجعلها تبدو حداً لا يمكن تجاوزه، وفي الآن نفسه تشكل عتبةً.

من المؤكد أن البحر والشمس والرمال، الماء والباسة والضوء والإحساس بنعومة الفضاء لمّا يُعشّج الجسد الشعري. ولأن الشّعْر كتابة معرفية - هو أيضاً - فإنه يتغذى على مختلف العناصر والمكونات الطبيعية والثقافية والحضارية. ويمكنني أن أزعم أن

أنا شاعر متوسطي

الشعرية المتوسطية (ولعلها شعريات بالجمع) وفُرت للعالم، عبّر العصور، أفضل العبقريات الشعرية وأجملها وأعقها منذ التراث الشعري الإغريقي والروماني إلى المنتجات العربية في دمشق والأندلس وفاس والقيروان ومراكش... وإلى اليوم.

القصيدة المتوسطية اليوم، كما نُقرأها ونتابعها في البلدان العربية المطلة على المتوسط وفي بلدان الشمال المتوسطي، وكذلك شرق المتوسط، تُشكّل أحد أجمل المشاهد الشعرية وأغناها في العالم المعاصر.

وأود هنا، بما أننا تحدّثنا من قبل عن البُعد الشفوي في الثقافة المتوسطية، أن أتنبّه إلى أن خرائط الشعر في المتوسط ليست موقوفة على الشعر المكتوب فحسب بل هناك أرصدة شعرية شفوية ينبغي الاهتمام بقيمتها في المغرب وفي المشرق وفي أوروبا المتوسطية، سواء في الروافد العربية أو الأمازيغية أو البروفانس أو الكاطان أو الأوكسيتان أو الجُزر أو السيلت أو السلاف أو الثابوليمتان، إلخ.

وبالتالي، لا ينبغي أن نلغينا حُرُصنا على الإسكاف بالمشترك المتوسطي والحرص على وحدة الثقافات الوطنية عن إيلاء الاعتبار للشعريات الفرعية والمحلية، ذلك لأنني أؤمن - شخصياً على الأقل - بأن نسيج الثقافة الوطنية ليس شيئاً آخر غير هذا التركيب المنهجي العقلاني بين جملة من المكونات الفرعية، الثقافية والأدبية (الشعرية والسرديّة).

أجل، هناك أدب متوسطي، ولكنه على قدر كبير من التنوع في اللغات واللهجات، وفي الأساليب وعلى مستوى المتخيل. وقد حظي عدد وافر من أدباء المتوسط في القرن العشرين بأرفع التفات العصر وأرفع الجوائز العالمية (نوبل والفونكور والأستورياس وكامويس والأركانسة... وغيرها)، وفي الببال أسماء بارزة من الآداب الإسبانية والإيطالية واليونانية المصرية والبرتغالية والفرنسية والتركية... وكذلك آداب جهة الألفكان المتوسطية.

التجربة التونسية

■ **الجديد:** في أحد الحوارات تناولت مسألة ضرورة البحث في أركيولوجيا الفن الشفوي باعتباره تاريخاً للشعر والنص الشعري، بل واشترت إلى أن تونس بلد متقدم من الناحية الأكاديمية والعلمية في هذا المجال. ما تعليقك على هذا؟

● **حسن نجمي:** صحيح، كنت قد أشرت - على سبيل المقارنة بين البلدان المغاربية - إلى أن تونس توفقت إلى حد كبير في إدماج التعليم الموسيقي والأنثرومينيكولوجي في الدراسات الجامعية وفي النظام التعليمي. وهذا ما جعل تونس تزخر بأفضل الكفاءات العلمية في مجال البحث الموسيقي، ويتنظيم مؤسساتي جيد وقوي وله حضور فاعل على مستوى التدريس والتكوين والتأليف العلمي والبيداكتيكي وتحقيق التراث الموسيقي والتونسي وكتابة تاريخ الممارسات الموسيقية وتدقيقه في تونس.

